﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النَّمل: 59 - 61]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

ربـطُ الاعـتـبـار بهلاك المكذِّبين ونجاةِ المؤمنين، بشُكرِ اللهِ على نعـمِـه، وعـدمِ الإشراكِ به

لَمّا اسْتوفَى غَرَضُ الاعْتبارِ والإنذارِ حقَّهُ بذكرِ بعضِ الأُمَمِ الَّتي كذَّبتِ الرُّسُلَ، وهي أشْبَهُ أحوالًا بأحوالِ المكذِّبينَ بمحمَّدٍ ﷺ، وبالكتابِ الَّذي أُنزِلَ عليه، أَقْبَلَ اللّهُ بالخطابِ إلى الرَّسولِ ﷺ، يُلقّنُهُ أفانينَ العِبر منَ القَصصِ السّالفةِ، وشُكرَ اللّهِ على المقصودِ منها[1]، مقدِّمًا الدَّليلَ الواضحَ على حكمتِه تعالى وعلمِه، وتنزُّهِه عنِ الشّريك في قدرتِه وحِلْمِه، وهو ﷻ الَّذي جعلَ الأرضَ راسيةً، وجعلَ فيها أنهارًا جارية، وجبالًا عالية، وجعل بين البحرَيْن حاجزًا، بألطاف قدرته، ودلائلِ حكمتِه، فهل يكونُ مع اللّهِ معبودٌ سواه، أو خالقٌ غيره، جلّ في كماله وعلاه؟ ومَنْ أنكر ذلك، فليس له أَثارةٌ من علم، ولا بقيّة من عقل، خصوصا وأنّه قد بان الدّليل، وزهقت الأباطيل[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَسَلَٰمٌ﴾: (سلم) مُعْظَمُ بابِهِ مِنَ الصِّحَّةِ والعافيَةِ، ويَكونُ فيهِ ما يَشِذُّ، والشّاذُّ عَنْهُ قَليلٌ، سَلِمَ يَسْلَمُ سَلامةً وسَلامًا: أَنْ يَسْلَمَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 6.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 186 - 190.

الإنْسانُ مِنَ العاهَةِ والأَذَى[1]، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ [الأنفال: 43]، وقال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦﴾ [الحجر: 46]. وقال تعالى: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١﴾ [الواقعة: 91]، والسَّلامُ هنا أنَّها تُسلِّمُ عليهم بالقولِ والفعلِ جميعًا، وهو من بابِ التَّحيَّة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النِّساء: 86]. وقولُه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝١٠٩﴾ [الصّافّات: 109] وقولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾، كلُّ هذا تنبيهٌ منَ اللهِ تعالى أنَّه جعلهم بحيث يُثنَى عليهم، ويُدعَى لهم[2]، أو يكونُ المعنى أنَّه يُسلِّمُ على مَنِ اصْطفاهُ بالعصمةِ عنِ الفواحشِ والنَّجاةِ عنِ الهلاك[3].

2) ﴿ٱصْطَفَىٰٓ﴾: (صفو) أصلٌ يدُلُّ على خُلوصٍ من كلِّ شَوْب، من ذلك الصَّفاءُ، وهو ضدُّ الكَدَر، يقالُ: صَفا يَصْفو، إذا خَلَصَ، يقالُ: لكَ صَفْوُ هذا الأمرِ وصِفْوَتُه، واصْطَفَى الطّاءُ فيه بَدَلٌ منَ التّاء، والصَّفاءُ: ضدُّ الكَدَرِ مَمْدودٌ، وصَفْوَة الشَّيْءِ: خالِصُهُ، ومُحَمَّدٌ ﷺ صَفْوَةُ اللهِ ومُصْطَفاهُ[4]، والرُّسُلُ والأنبياءُ هم صفْوَةُ اللهِ من خَلْقِه، اصْطفاهُم لأداءِ مُهِمَّةِ الرِّسالةِ والبلاغِ عنِ اللهِ تعالى بوَحْيِه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: 32]، وقال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٧﴾ [ص: 47][5]. وقولُه تعالى: ﴿عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ هم أصحابُ محمَّدٍ ﷺ[6]، ويمكن أن يُراد: هم أُمَّةُ محمَّدٍ ﷺ، اصْطفاهُمُ اللهُ لمعرفتِه وطاعتِه[7]. ويمكن أن يكون المعنَى: همُ الَّذين وحدّوني وآمنوا بي[8]، وهو الأَوْلى لعمومه، فيدخلُ فيه الرُّسُلُ والأنبياءُ وأتباعُهم[9].

3) ﴿حَدَآئِقَ﴾: (حدق) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ الشَّيْءُ يُحيطُ بِشَيْءٍ[10]، يقال: حَدَقوا به وأَحْدَقوا: أَحاطوا به، تشبيهًا بإدارة الحَدَقَة، وحَدائقُ جمعُ حديقة، وهي قطعةٌ منَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سلم).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سلم).
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 271.
(4) إبطال الرّكبي، النّظم المستعذب في تفسير غريب ألفاظ المهذّب: 2/ 133.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صفو).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 2، وابن أبي حاتم، تفسير ابن أبي حاتم: 9/ 2906.
(7) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 192.
(8) ابن الجوزي، زاد المسير: 6/ 185.
(9) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 192.
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حدق).

الأرضِ ذاتُ ماء، سُمّيت بِحَدَقَةِ العَيْن في الهيئةِ وحصولِ الماء فيها، قال تعالى: ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾[1]، والحديقةُ: أرضٌ ذاتُ شَجَرٍ مُثْمِر، والحديقةُ منَ الرّياض: كلُّ روضةٍ قد أَحْدَقَ بها حاجز، أو أرضٌ مُرتفعة، وكلُّ شيءٍ اسْتدارَ بشيءٍ فقد أَحْدَقَ به[2]. والحدائقُ: جِنانٌ من جِنانِ الدُّنيا، واحدتُها: حديقة[3]. وإنَّما يقالُ حديقةٌ لكلِّ بستانٍ عليه حائط، وما لم يكن عليه حائطٌ، لا يقالُ له: حديقة[4]. وتُطلَقُ الحديقةُ على القِطْعةِ منَ النَّخْل[5].

4) ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾: (بهج) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ السُّرورُ والنَّضْرَةُ[6]، يقال بَهِجَ يَبْهَجُ، فهو بَهيجٌ به وبهِجٌ، أي: فَرِحَ به وسُرَّ، وأَبْهَجَه: سرَّهُ، والابْتهاجُ: السُّرور، قال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧﴾ [ق: 7]. والبَهجةُ: حُسْنُ اللَّونِ وظُهورُ السُّرور[7]، ومنه قولُه تعالى: ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾، أي: حدائقَ ذاتَ حُسْنٍ[8] ورَوْنَق، فيبتهجُ مَنْ رآها: أي: يُسَرُّ ويَفْرح[9].

5) ﴿يَعْدِلُونَ﴾: (عدل) أَصْلان صحيحان، لكنَّهما متقابلانِ كالمتضادَّيْن: أحدُهما يدلُّ على اسْتواء، والآخرُ يدُلُّ على اعْوجاج. فالأوَّلُ؛ العَدْلُ منَ النّاس: المرضيُّ المُستوي الطَّريقة، يقال: هذا عَدْلٌ، وهما عَدْلٌ. وأمّا الأصلُ الآخَر - وهو المعنيُّ هنا - فيقالُ في الاعْوجاج: عَدَل، وانْعدَلَ، أي: انْعرَجَ، يقال: عَدَلَ، يَعْدِلُ، عَدْلًا وعُدولًا، وانْعدَلَ عنه مثلُه، ومنه: عَدَلَ عنِ الحقِّ - إذا جارَ - عُدولًا، ومنه قولهُ تعالى: ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: 1][10]، وقولُه تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، أي: يشركون به غيرَه[11]، أو بمعنَى: يَعْدِلونَ عنِ القَصْدِ والحقّ، أي: يكفرون[12].

(1) الرّاغب، المفردات: (حدق).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (حدق).
(3) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 95.
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 297.
(5) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 128.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بهج).
(7) الرّاغب، المفردات: والرّازي، مختار الصّحاح: (بهج).
(8) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 326.
(9) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 193.
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (عدل).
(11) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 3.
(12) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 128.

6) ﴿قَرَارًا﴾: (قرّ) قَرَّ في مكانِه يَقِرُّ قَرارًا، إذا ثبتَ ثُبوتًا جامدًا، وأصلُه منَ القُرِّ، وهو البَرْد، وهو يَقْتضي السُّكون، والحرُّ يقتضي الحركة[1]. قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: 33]، وأصلُه: اقْرِرْنَ فحذفَ إحدى الرّاءيْنِ تخفيفًا[2]، والقَرارُ في المكان: الاستقرارُ فيه، تقول منه: قررت بالمكان بالكسر، أقَرُّ قَرارًا، وقَرَرْتُ أيضًا بالفتح أقِرُّ قَرارًا وقُرورًا. وقَرَرْتُ به عينًا وقَرِرْتُ به عينًا قُرَّةً وقُرورًا فيهما. ورجلٌ قريرُ العين، وقد قرَّت عينه تَقِرُّ وتَقَرُّ: نقيضُ سخنت. وأقرّ اللّه عينَه، أي أعطاه حتَّى تَقَرَّ فلا تطمح إلى من هو فوقَه[3]، وقولُه تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: دَحاها وسوّاها وجعلَها مُستقرًّا لا تَميدُ بأهلِها[4].

7) ﴿خِلَٰلَهَآ﴾: (خلّ) أَصْلٌ واحِدٌ يَتَقارَبُ فُروعُهُ، ومَرْجِعُ ذَلِكَ إمّا إلَى دِقَّةٍ أَوْ فُرْجَةٍ[5]، فالخَلَلُ: فُرجةٌ بين الشَّيئَيْن، وجمعُه خِلال، كخَلَلِ الدّار، والسَّحاب، والرَّمادِ وغيرِها، قال تعالى في صفةِ السَّحاب: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النّور: 43][6]، قال الشّاعر: (أرَى خَلَلَ الرَّمادِ وميضَ جَمْر)[7]، وقال الأصمعيّ: تخلّلت القومَ: دخلت بين خللِهم وخلالَهم، وجلسنا خلال البيوت، وخلالَ الدّور أي بينها، ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: 43]، أي: من فتوقِه ومخارجه، جمع خلل كجبل وجبال[8]، وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ﴾ أي: فيما بينَها[9].

8) ﴿رَوَٰسِيَ﴾: (رسو) أصلٌ يدُلُّ على ثبات، تقول: رَسا الشَّيءُ يَرْسو، إذا ثَبَتَ، واللّهُ ﷻ أَرْسَى الجبال، أي: أثبتَها، وجَبَلٌ راسٍ: ثابت، قال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النّازعات:

(1) الرّاغب، المفردات: (قر).
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 342.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (قرر).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (قرر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلّ).
(6) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (خلل).
(7) هذا شطرُ بيت، وعجزه: فيوشكُ أن يكونَ له ضِرامُ، وهو لنصرِ بن سيّار، استشهد به ابن قتيبة، عيون الأخبار: 2/ 128، وأبو الفرَج الأصفهاني، الأغاني: 6/ 124.
(8) محمّد عبد الخالق عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 9/ 974.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 3.

32](1)، ورَسَت السّفينة: بلغ أسفلُها القَعْرَ وانتهى إلى قَرار الماء، فثبتَتْ وبقيت لا تسيرُ(2)، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: الجبالَ الثَّوابت، تُمسِكُها وتمنعُها منَ الحركة(3).

9) ﴿حَاجِزًا﴾: (حجز) أصلٌ واحدٌ مُطَّرِدُ القياس، وهو الحَوْلُ بين الشَّيئَيْن، وذلك قولُهم: حَجَزْتُ بين الرَّجُلَيْن، وذلك أن يمنَعَ كلّ واحدٍ منهما من صاحبِه. قال تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقَّة: 47](4). وقولُه: ﴿حَاجِزًا﴾، أي: لا يغيِّرُ أحدُ البحرين الآخَر بوجود حائل(5).

المَعْنى الإجْماليُّ:

المُستَحِقُّ للعبادة، والحمدِ على آلائه العظيمةِ؛ هو اللهُ لا أحدَ سواه

يأمر الله رسولَه ﷺ أن يحمد الله على نعمِه الجليلة، ومننِه الجميلة، وعلى ما اتَّصفَ به منَ الصِّفاتِ العُلَى، والجلال الأسنى، وأن يُسلِّمَ على رسل الله المصطفين، ملفتًا في اسْتفهامٍ تقريريّ، إلى أنّه خلقَ السَّماواتِ والأرض، وأنزلَ منها الماء، وأنبتَ به الشّجرَ الباسق، والثّمرَ اليانع، والحدائقَ الغنّاء، والمروجَ المزدانةَ بالأزهار والاخضرار، ممّا لا يخلقه إلّا الله الواحد القهّار، ولكنّ البشر يَعْدِلونَ عنِ القَصْدِ والحقّ، ويعبدون من لا يقدر على شيء، ولا يلتفتون إلى أنّ قدرة الله تعالى هي الّتي ضمنت في الأرض القرارَ، وأجرت خلالها الأنهار، وخلقت الرّواسيَ منَ الجبال، وجعلت بين الأمواج حاجزا يمنعُها منَ الامتزاج، لتستخلص أنّه لا إله إلّا الله، ولكنّهم عنها محجوبون، لأنّهم لا يعلمون.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رسَى).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رسَو).
(3) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 193.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (حجز).
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 17/ 275.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصلِ جملة ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ عمّا قبلها:

المعبوداتُ بغيرِ حقٍّ مُباينةٌ للهُ، في ذاتِه وأفعالِه وأسمائِه وصفاتِه

جاءَ الفصلُ في قولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، اسْتِئنافًا مترتّبًا على ما سبق، فقد تمَّ بما قصَّه اللهُ من أنباءِ الأنبياءِ مع أقوامهم - وكان لوطٌ عليه السلام آخرَهم - استِنتاجُ ما أرادَ اللهُ ﷻ منَ الدَّليل على حكمتِه وعلمِه، ومُباينتِه للأصنامِ في قدرتِه وحلمِه[1]، فجاءت بعد ذلك الآياتُ مُفتتحةً بتعظيم من ثبت له الوحدانيّةُ والألوهيّةُ فقال: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾.

بلاغةُ الأمرِ في جملة: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾:

الحمدُ للهِ على إنجاءِ الصّالحين، وإهلاكِ الكفرة الظّالمين

قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ أمرٌ للرَّسولِ ﷺ بإنشاءِ حَمْدِ اللهِ، إنشاءً منصبًّا على كلِّ ما دلَّت عليه القَصصُ السّابقةُ، من نجاةِ الرُّسلِ منَ العذابِ الحالِّ بقومِهم، وعلى ما أَعْقَبَهُمُ اللهُ على صبرِهم منَ النَّصرِ ورِفعةِ الدَّرجات، وعلى إهلاكِ أعدائِهمُ الظّالمين، كقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٥﴾ [الأنعام: 45][2].

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾:

الحمدُ أدبٌ مع مؤيِّدِ المرسَلين بمعجزاتِه، وجاعِلِهم أصحابَ فضلٍ على عباده

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾؛ لأنَّ فيه تعليمًا حسَنًا، وتوقيفًا على أدبٍ عظيمٍ توارثتْه العلماءُ والخُطباءُ والأُدَباء كابرًا عن كابر، فحمدوا اللهَ تعالى أمامَ كلِّ علم مُفاد، وقبلَ كلِّ موعظةٍ تنشأ، وتذكرةٍ تبدأ أو تعاد[3]، وإيثارُ الحمدِ هنا على وجهِ الخصوص؛ لأنَّه يشملُ سائرَ صفاتِ الكمالِ الَّتي لا تُستحقُّ إلّا للهِ ﷻ[4]؛ فهو سبحانه الَّذي أيَّد أنبياءه ورُسلَهُ بالمعجزاتِ الباهرات، وجعلَهم أصحابَ فضلٍ على عبادِه، بأدائهمُ الحقَّ واجتهادِهم في الدّين[5].

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 184.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 6.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 154.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 134.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 214.

سرُّ إضافةِ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ إلى الذّاتِ العَليّة:

الحمدُ بتمامِه وكمالِه، مقصورٌ على اللهِ دون سواه

أضافَ النَّظمُ القرآنيُّ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ إلى الذّاتِ القُدسيَّةِ العليَّة؛ لأنَّه لا أحدَ يستحقُّ تمامَ الحمدِ وكمالَه إلّا صاحبُ المحامدِ كلِّها، بأفعالِه وسُنَنِه الشَّرعيَّة، والخَلقيَّةِ التَّكوينيَّة، وهو اللّهُ الخالقُ الَّذي لا معبودَ بحقٍّ سواه، فَحَصْرُ الحمدِ له تعالى، وإضافتُه إليه، بناءً على ما تدُلُّ عليه جملتُه ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ من اختصاصِ جِنْسِ الحمدِ به تعالى، واستحقاقِه لذلك الاختصاص[1]، فهو ﷻ مختصٌّ بالمستجمعِ للأسماءِ الحُسنَى، والصِّفاتِ العُلى عند الإعدام، كما كان عند الإيجاد[2].

بلاغةُ عطفِ ﴿وَسَلَٰمٌ﴾ في السّياق:

السَّلامُ تابعٌ للحمدِ، وهو مظهرٌ من مظاهره

عُطِفَ على المأمورِ بقوله ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ السَّلامُ على الرُّسُلِ الَّذين سبقوه قدرًا؛ لقَدْرِ ما تجشَّموهُ في نشرِ الدّين الحقّ، وأصلُ (سلامٌ): سلَّمْتُ سَلامًا، مقصودٌ منه الإنشاءُ، فحُذف الفعلُ وأُقيمَ مفعولُه المطلقُ بدَلًا عنه، وعدَلَ عن نَصْبِ مفعولِه المطلَقِ إلى تصييرِه مُبتدأً مرفوعًا للدَّلالةِ على الثَّباتِ والدَّوام، فعُطِفَ سلامٌ عليه، ليكونَ الأمرُ متوجِّهًا للمأمورِ بإنشاءِ حمدٍ وإنشاءِ سَلام[3].

سرُّ تنكيرِ لفظ ﴿وَسَلَٰمٌ﴾ هنا:

السّلام على عباد الله المصطفين ثابتٌ دائمٌ في كلِّ حال

السَّلامُ في الأصلِ اسْمٌ لما يقولُه القائلُ لمن يُلاقيه، بلفظِ: سلامٌ عليك، أوِ السَّلامُ عليك، وجاء ﴿وَسَلَٰمٌ﴾ - هنا - نكرَةً؛ للدّلالة على العموم، فهي سلامةٌ في كلِّ ما تَعْنيه كلمةُ (سَلامة)، في أمورِ الدّين والدُّنيا، وفي كلِّ الأحوالِ، فعباد الله الذين اصطفاهم - وأوّلهم الأنبياء - قد نالوا السّلامة كلّها، بالخير في الدّنيا، ورفعةِ المقام في الآخرة.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 134.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 184.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 6 - 7.

بلاغةُ استعمال ﴿عَلَىٰ﴾ في الآية:

تمكُّنُ السَّلامِ من عبادِ اللهِ المصْطَفَيْن، دالٌّ على حالهم ومآلهم

اسْتعملَ النَّظمُ الكريمُ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ﴾؛ لِما تُؤذِنُ به ﴿عَلَىٰ﴾ منَ الاسْتعلاءِ المجازيّ، المرادِ به التَّمكُّنُ، كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: 5][1]، وأشارَ به كذلك بأنَّه لا وصولَ للعطبِ إليهم أبدًا[2].

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ العبوديَّةِ دون سواها:

العبوديَّةُ للهِ أعظمُ النِّعمِ الَّتي تستحقُّ استغراقَ الحمد

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ الجليلُ التَّعبيرَ بلفظِ العبوديَّة، في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ عِبَادِهِ﴾ دون سواها؛ لأنَّها أعظمُ المقاماتِ وأَشْرفُ المكرُمات، ولذلك قدَّم لها بقولِه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فأَجَلُّ نعمةٍ، وأسْمى فضيلةٍ، أَحْسَنَ اللهُ بها على خَلْقه، هي نعمةُ العبوديَّة له ﷻ، فالحمدُ مُستحَقٌّ بكمالِه وتمامِه لمعبودِهمُ الحقِّ ﷻ أزلًا وأبدًا[3].

دلالةُ الإضافةِ في قوله: ﴿عَلَىٰ عِبَادِهِ﴾:

المصْطَفَوْن الأخيارُ، عبادٌ مُشرَّفونَ مُكرَّمون، عند إلههم الأحد

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿عِبَادِهِ﴾، إشارةً إلى شرفِ عبادِه الَّذين اصْطفَى، فهي إضافةُ تشريفٍ لهم ورفعةٍ لمقامِهم عند مليكِهم ﷻ[4]، فمن أضافه اللّه إليه نال الخيرَ كلّه، فهو في حفظه ورعايته وتوفيقه.

سرُّ التَّعبيرِ بالموصوليَّة بلفظ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

تأكيدُ التَّشريفِ بالعبوديَّة والاصْطفاء

اسْتعمالُ الاسمِ الموصولِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾، تأكيدٌ لاسْتحقاقِهمُ التَّشريفَ بعبوديَّتهم للّه، وأنَّ هذا الاصْطفاءَ حاصلٌ منه لهم لا لغيرِهم، فهو تشريفٌ فوقَ تشريف، اصْطفاءٌ بالعبوديَّةِ واصْطفاءٌ بالرِّسالة[5].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 6 - 7.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 184.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 184.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 184.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 184.

اخْتيارُ صيغةِ الاصْطفاءِ في الآية:

الاصْطفاءُ لأداءِ رسالةِ التَّوحيدِ ونَبْذِ الشِّرك، مقصدٌ جوهريٌّ في البلاغ

ذكرَ الاصْطفاءَ في قولِه تعالى: ﴿عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾، وقد كان هذا الذِّكرُ عِرفانًا لفضلِ المصطَفَيْن، وأداءً لحقٍّ تقدُّمِهم واجتهادِهم في الدّين، وبيانًا بأنَّ اللّهَ لا يَصْطفي إلّا من اتَّصفَ بصفاتٍ تؤهِّلُه لهذا الاصْطفاء[1]، وأنَّ العبادَ الَّذين اصْطفاهُمُ اللّهُ هم الرُّسُلُ والأنبياء، ويشملُ ذلك الصّالحينَ من عبادِه، وقد جاؤوا كلُّهم بحاصلِ قولِه تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2].

بلاغةُ الاستفهامِ في الآية الكريمة:

إلجاءُ المخاطَبِ للإقرارِ بالحقِّ، إفصاحٌ عنِ المراد في السّياق

الاسْتفهامُ في قولِه تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ مُستعمَلٌ في الإلجاءِ، وإلزامِ المخاطَبِ بالإقرارِ بالحقِّ، وتنبيهِه على خَطئِه، وفيه أيضًا تَهَكُّمٌ بالمشركينَ الَّذين أَفْرَطوا في خطئِهم وجَهْلِهم، فعبَدوا مع الإلهِ الحقِّ الأحد شُرَكاءَ من خَلْقه، أو أصنامًا هم صَنعوها لا تضرُّ ولا تنفع[3]. فالاسْتفهامُ الَّذي صُدِّرتْ به جملةُ ﴿ءَآللَّـهُ﴾، يُقصَدُ به في مثل هذا السّياق إلزامُه الإقرارَ بحَصْرِ التَّفضيلِ في جانبٍ واحدٍ، وانْتفائه عنِ الآخَر[4].

مجيءُ أفعلِ التَّفضيلِ ﴿خَيْرٌ﴾:

اسْتدراجُ المشركينَ في التَّنبيهِ على خطئِهم، مع التّهكّمِ بهم

معلومٌ أنَّه لا خَيْرَ فيما أَشْركوهُ أصْلًا، حتَّى يوازَنَ بينَه وبينَ مَنْ هو خالقُ كلِّ خيرٍ ومالكُه، وإنَّما هو إلزامٌ وتبكيتٌ وتَهكُّمٌ بحالِهم، وذلك أنَّهم آثروا عبادةَ الأصنامِ على عبادةِ اللّه، ولا يُؤثِرُ عاقلٌ شيئًا على شيءٍ إلّا لداعٍ يدعوه إلى إيثارِه من زيادةِ خيرٍ ومنفعة، فقيلَ لهم مع العلمِ أنَّه لا خيرَ فيما آثَروه، وأنَّهم لم يُؤثروه لزيادةِ الخير، ولكن هوًى وعبَثًا ليُنبَّهوا على الخطأِ المفرِطِ، والجهلِ المورِّطِ، وإضلالِهمُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 214.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 8 - 9.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 9.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 215.

التَّمييزَ ونبذِهمُ المعقول، وليعلَموا أنَّ الإيثارَ يجب أن يكونَ للخيرِ الزّائد، ونحوُه ما حكاه عن فرعونَ، في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزُّخرف: 52]، مع علمِه أنَّه ليس لموسى عليه السلام مثلُ أنهارِه الَّتي كانت تجري تحتَه[1]، فلَمّا كان المشركونَ يتوهَّمون في الأصنامِ وفي عبادتِها خيرًا، قيل لهم احتجاجًا عليهم: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2].

دلالةُ (أَمْ) وسرُّ ورودها:

غرضُ الاستفهام الإنكاريِّ، زيادةُ التَّهكّم بالمشركين

لفظُ (أمْ)، في قوله تعالى: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ مُتَّصلةٌ، أي: أيُّهما خيرٌ؟، وهي (أم) المعادِلةُ للهمزة، وفي هذا الأسلوب زيادة في الازْدراءِ بالمشركين وبيانِ فداحةِ ما هم عليه منَ الخطأِ الشَّنيعِ والجهلِ المُطبِق[3]، فكيف يساوون بين الخالقِ سبحانه وغيرِه مِنَ المخلوقات. ومعلوم أنّ ﴿أَمَّا﴾: مكوَّنةٌ من (أم) مع (ما)، و(ما) مصدرية أو اسمٌ موصولٌ بمعنى الّذي[4].

مفهومُ (ما) في قوله: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾:

سفاهةُ المشرك الذي يعلم أنّ معبوداتِه لا تضرّ ولا تنفع

(ما) في قوله تعالى: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، اسْمٌ موصولٌ بمعنَى (الَّذي)، جيء به بعد (أَمْ) لِما في صِلاتِه منَ الصِّفاتِ الَّتي تعدُّ من قبائحِ ما يُشركونَه مع اللهِ منَ الأصنامِ الَّتي ليس لعابديها أيُّ حظٍّ منها، في جَلْبِ نفعٍ أو دفعِ ضُرّ[5]، ويمكنُ أن تكونَ (ما) مصدريَّةً، والتَّقديرُ: (أتوحيدُ اللهِ خيرٌ أمْ إشراكُهم)[6].

اخْتيارُ الفعلِ ﴿يُشْرِكُونَ﴾ دون سواه:

أهلُ مكَّة كانوا يُشركونَ مع اللهِ غيرَه في العبادِ، جهلًا وضلالًا وغُلوًّا

جاءَ الفعلُ ﴿يُشْرِكُونَ﴾ لبيانِ حقيقةِ ما كانت عليه قريشٌ ونحوُهم

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 154.
(2) النَّحاس، إعراب القرآن: 3/ 217.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 154، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 272.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن النّريّ الجامع: 4/ 20.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 9.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 215.

منَ الإشراكِ في اللّهِ بعبادةِ الأصنامِ - الَّتي صنعوها بأيديهم - مع إيمانِهم بأنَّ اللّهَ هو الرَّبُّ الخالق، لكنَّ العبوديَّةَ الخالصةَ له لا تستقيم، فلا بُدَّ من إشراكِ معبوداتٍ أُخرى معه - حسب وهمِهم - فهذا إشراكٌ حاصلٌ منهم يعبِّر عنه خيرَ تعبيرٍ الفعلُ ﴿يُشْرِكُونَ﴾.

مجيءُ فعلِ الإشراكِ هنا مضارعًا:

جاءَ فعلُ الإشراكِ بصيغةِ المضارع ﴿يُشْرِكُونَ﴾؛ لأنَّه يفيدُ الاستمرارَ والتَّجدُّد، وهذا بيانٌ لحالِ مُشركي مكَّة، حيث أشركوا باللّهِ قبل بعثةِ رسولِ اللّه ﷺ، وداوموا على شركِهم باللّه، بعد بعثته ﷺ وبَقَوْا على شِركهم، ويتجدّد منهم الشّركُ رغم تجدّد الآيات الواضحات الدّالّة على أحقّية اللّه تعالى وحده بالعبودية والاستسلام والانقياد.

استمرارُ المشركينَ على شِركِهم، جحودًا وعنادًا

عودُ الضَّمير في قوله تعالى: ﴿يُشْرِكُونَ﴾:

عَوْدُ الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ لقُريشٍ ونحوِهم منَ المشركين، ويمكنُ أن يعودَ لأولئك المهلَكين، والأوَّلُ أظهرُ وأَوْلى بالسّياق[1]، ومُفاد الجملة أن لا خيرَ فيما أشركوه أصلًا حتَّى يوازنَ بينَه وبينَ مَن هو خالقُ كلِّ شيءٍ، وإنَّما هو إلزامٌ لهم، وتهكُّم بحالهم؛ ليتنبَّهوا على الخطأ المُفرِط، والجهل المورِّط، وليعلموا أنَّ الإيثار يجبُ أن يكون للخير الزّائد"[2]، وأنّ اللّه هو مصدرُ كلِّ عطاء ونفع، وأنّ الشّركاء لا نفعَ فيهم يُؤملُ، ولا خيرَ منهم يُرتجى.

الخطابُ لمشركي قريشٍ، ولمنِ اقْتدَى بضلالِهم

توجيهُ القراءتيْنِ في قوله: ﴿يُشْرِكُونَ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ قراءتانِ متواترتان، فقرأ أبو عمرو ويعقوب وعاصم بالغيب ﴿يُشْرِكُونَ﴾، وقرأ الباقون بالخطاب ﴿تُشْرِكُونَ﴾[3]، فعلى القراءة الأولى: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بياءِ الغَيْبة، يكون القولُ الَّذي أُمرَ به النَّبيُّ ﷺ مَحكيًّا بالمعنَى، روعيَ فيه غَيْبةُ

الخطابُ للمشركين الفجرة، من أهل مكَّةَ وغيرِهم منَ الكفَرَة

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 215.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 7/ 481.
(3) ابن الجزري، النَّشر: 2/ 338.

المشركينَ في مقامِ الخطابِ بالأمر، فالمرادُ بهم قريشٌ ونحوُهم منَ المشركين. وعلى القراءة الثّانيةُ: ﴿تُشْرِكُونَ﴾ بالتّاء، يكون توجيهُ الخطاب للكَفَرةِ ومَن كان على شاكلتِهم[1].

دلالةُ (أَمْ) في قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾:

الانْتقالُ منَ التَّهكُّمِ بالمشركينَ، إلى تقريرِ قدرةِ اللهِ على العالمين

(أَمْ) في قولِه تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾ منقطعةٌ، بمعنَى بلْ والهمزة، لَمّا قالَ اللهُ تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ أم الآلهة؟ قال: بل ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ خير[2]، ولَمّا كانت (بل) للإضرابِ الانْتقاليّ من غَرَضٍ إلى غَرضٍ، مع مراعاةِ وجودِ الاستفهامِ، أو لفظِه بعدها -؛ لأنَّ (أَمْ) لا تفارقُ معنَى الاستفهام -، انتقل بهذا الإضرابِ منَ الاسْتفهامِ الحقيقيِّ التَّهكُّميِّ، إلى الاسْتفهامِ التَّقريريّ، ومنَ المقدّمةِ الإجماليَّة، وهي قولُه: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ إلى الغرضِ المقصود، وهو الاسْتدلالُ[3].

دلالةُ (مَنْ) وأثرُ موقعِها الإعرابيّ:

الابْتداءُ بتقريرِ قدرةِ اللهِ على الخلقِ، مُبين عنِ المراد

(مَن) في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾ أعطتْ تقريرًا مؤكَّدًا، بأنَّ مَنْ قَدَرَ على خَلْقِ العالَمِ خيرٌ من جمادٍ لا يقدِرُ على شيء[4]، وفي هذا تبكيتٌ لهم وتهكُّمٌ بما هم عليه من سفاهةِ الأَحْلامِ ونزولِهم إلى أدْنَى دَرَكات العَمَى عن حقائقِ الأمور، و(مَنْ) اسمٌ موصولٌ، وكان الأصلُ أن يقال: أمْ هو، ولكنَّه عبَّر باسْمٍ موصولٍ أصْلُ وضْعِه لذي العلم، ووَصَلَه بما لا يصحُّ أن يكونَ لغيرِه، ليكونَ كالدَّعْوَى المقرونةِ بالدَّليلِ الحسّيّ المشاهَد، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[5].

ورودُ الفعلِ ﴿خَلَقَ﴾ ماضيًا:

تحقُّقُ الخَلْقِ بقدرةِ اللهِ، مُفْضٍ إلى الإيقانِ بعظمةِ الخالق

وردَ الفعلُ ﴿خَلَقَ﴾ بصيغةِ الماضي تنبيهًا على تحقُّقِ الخَلْقِ،

(1) مكّي، الكشف: 2/ 163، والآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 215.
(2) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 154.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 10.
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 154.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 186.

ولدلالة القدرةِ على بدئه على القدرةِ على إعادته؛ بل من بابٍ أَوْلى، فمَن تحقَّقَ منه بدءُ الخلق، تحقَّقَ منه بعثُ النّاسِ ليوم القيامة، وفي هذا دلالةٌ على أمرَيْن: الإيمانُ بأنَّ اللّهَ هو الخالقُ، والإيمانُ بالآخرة[1].

سرُّ التَّعريفِ في كلٍّ من ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

السَّماواتُ والأرضُ المعهودة، من خلقِ الله وحدَه دون سواه

جاء التَّعريفُ في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، لبيانِ اسْتحقاقِ السَّماواتِ والأرض أن تكونَ من خلق اللّهِ وحده، فهي مخلوقةٌ بأمرِ اللّهِ وقدرته، فلا يصحُّ أن يكونَ خلقُها لغيره، فهي السَّماواتُ والأرضُ المعهودةُ المعلومةُ المشاهدةُ للخَلْق، فهذه الدَّعوى في خَلْقِها مقرونةٌ بالدَّليلِ الحسّيّ المعهود[2]، فالتّعريفُ فيهما للعهد.

دلالةُ عطفِ فعلِ الإنزالِ على الخلقِ:

الّذي أنبتَ الأرضَ بالماء، هو من خلقَ الأرضَ والسَّماء

عُطِفَ فعلُ الإنزالِ على الخلقِ في قوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُمۡ﴾، وفيه أنّه لمّا كان الإنباتُ من أدلِّ الآياتِ على إحياءِ الأموات، عطفَ ما يُسبِّبُه وهو إنزالُ الماءِ منَ السَّماء، والماءُ المنزَّلُ منَ السَّماءِ والإنباتُ كلاهما بخَلْقِ اللّهِ وقدرته[3]، وفيه تعميمٌ لبيان أنّه خالقُ الوجود كلِّه: السّماواتِ والأرضِ وما فيهما، ثم تخصيصُ التقاء السّماء بما فيها والأرض بما فيها من خير للإنسان والحيوان، لكيلا يظنَّ أحدٌ أنّ ذلك الإنباتَ منَ الأخذ بالأسباب والمسّببات، بل بيّن الله تعالى أنّ ذلك الإنبات منه، وهو فوق الأسباب والمسّببات[4].

دلالةُ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَكُمۡ﴾:

تخصيصُ العبادِ بنعمةِ الماءِ، يوجِبُ الشُّكران لا الكُفران

تقدَّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لَكُمۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، لتخصيصِهم بهذه النِّعمةِ العظيمةِ الَّتي فيها

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 186.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 186.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 186.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 171.

قَوامُ معاشِهم وحياتهم، أي: لأجلِكم ومنفعتِكم خاصَّةً أنزلتُ الماءَ منَ السَّماء، وأنتُم تكفرون بي، وتنسبونَ ما تفرَّدتُ به من ذلك لغيري[1]!!. وهذا التَّخصيصُ على سبيلِ الامْتنان، وأنَّ ذلك من أجلِكم لا من أجلِ غيرِكم[2]، وفيه تعريضٌ بالمشركين بأنَّهم ما شكروا نِعمةَ اللّه[3].

دلالةُ التَّنصيصُ على ذكرِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

السَّماءُ مصدرُ النِّعمِ النّازلة لـلأرض، عطاءً منَ الله ونعمةً

﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، تعبِّرُ عن ذكرِ اللّهِ تعالى لمقرِّ العالمِ العُلويِّ، فبدأ تعالى بذكرِ إنشاءِ مقرِّ العالمِ العلويِّ وإنزالِ ما به قَوامُ العالمِ السُّفليِّ، على سبيلِ الامْتنان؛ إذِ السَّماءُ مصدرُ النِّعمِ والخيراتِ للأرضِ وعُمّارِها[4].

سرُّ التَّنكيرِ في لفظِ ﴿مَآءً﴾:

التَّنكيرُ في لفظ ﴿مَآءً﴾ للتّنويع، أي: لبيان نوعٍ منه، وهو المطر[5]، الَّذي به حياةُ الأرضِ بالإنْبات، وإلّا فإنَّ منَ الماءِ ما يكون عذابًا وبلاءً.

بلاغةُ عطفِ الإنباتِ على ما سبق:

مَنْ أنكرَ توحيدَ اللهِ، تجاهلَ نِعمَهُ عليه وأنكر عطاياه

جاء عطفُ الإنْباتِ، في قوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾ على ما تقدَّمه؛ لإثباتِ أنَّ الخالقَ والمُنبِتَ والرّازقَ هو اللّه، وهو مشوبٌ بتوبيخٍ، إذْ كيف ينصرفونَ عن عبادتِه وتوحيدِه، لعبادةِ أصنامٍ جامدةٍ لا تنفعُ ولا تضرُّ؟! وكيف يتجاهلونَ نعمَه عليهم ومنها إنباتُ الزُّروعِ والأشجارِ والثِّمار، وفيها غذاؤهم وقوامُ معاشِهم وحياتِهم[6]؟!

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 186.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 257.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 11.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 257.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 272، والآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 215.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 11.

دلالةُ مرجعِ ضميرِ فعلِ الإنباتِ على ما سبق:

المُنبتُ للزّروعِ، هو صاحبُ الخلقِ المتفرّدِ البديعِ

الإنباتُ: تكوينُ النَّبات، ونموُّه ونُضْجُه، وكلُّ ذلك من فعلِ اللّهِ تعالى وحدَه لا شريكَ له، وكيف لا يكون ذلك كذلك، واللّهُ تعالى قالَ في صدرِ الآية: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؟!، فمَن أَنْبتَ الأرضَ بالزُّروع والثّمار، هو الَّذي خلقَ السَّماواتِ والأرض، وأنزل الماءَ لإحياءِ الأرضِ بذلك الإنبات، وليس الماءُ هو المُنبتُ الحقيقيّ؛ بلِ المُنبتُ الحقيقيُّ هو اللّهُ ﷻ الَّذي خلقَ الأسبابَ والمسبّبات والمسبَّبات، ورجوعُ الضَّميرِ إليه أَلْيقُ بمقامِ التَّوبيخِ على عدمِ رعايتِهم نِعَمَه[1].

بلاغةُ الالتفاتِ في الآيةِ الكريمة:

الإنسانُ في الإنبات يتّخذُ الأسباب، والله هو المنبتُ على الحقيقة

في قوله تعالى ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ﴾ التفاتٌ منَ الغيبة إلى الحضور، إذ كانت الآيات فيما سبق على وجه الغيبة: ﴿خَلَقَ﴾، ﴿وَأَنزَلَ﴾، ثم التفت إلى الحضور ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾، ومن لطائفه هنا التّنصيصُ على أنَّ المقصود إسنادُ الإنبات إليه لئلّا ينصرف ضميرُ الغائب إلى الماء؛ لأنَّ التّذكير بالمنبت الحقيقيّ الذي خلق الأسباب أليقُ بمقام التّوبيخ على عدم رعايتهم نعمَه[2].

سرُّ ورودِ الجارِّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾:

اللهُ ﷻ خالقُ السَّببِ والمسبَّب، وخالقُ كلِّ شيء

جاءَ بيانُ النَّظم الكريم باستعمالِ الجارِّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾، في قولِه تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ﴾، بعد قولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، فقولُه: ﴿بِهِۦ﴾ أي: فأَنْبتْنا بالماء، فالماءُ سببٌ للإنبات، واللّهُ ﷻ هو خالقُ السَّببِ والمُسبَّب، فالماءُ والإنباتُ كلاهما بخلقِ اللّهِ ﷻ، وفي ذلك تعريضٌ بالمشركين، بأنَّكم لا تستطيعون إبرازَ شيءٍ منَ العدمِ إلى الوجود، كإنباتِ الزُّروعِ والثِّمار، فهذا ليس بمقدورٍ إلّا للّهِ تعالى[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 11.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 11.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 257 - 258.

دلالةُ لفظِ ﴿حَدَآئِقَ﴾ في الآية:

البساتينُ المحاطةُ مع تنوُّعِها أنبتَها اللهُ بالمطرِ الَّذي أنزلَه

الحديقةُ: البُستانُ عليه حائطٌ، منَ الإحْداق، وهو الإحاطة[1]، وحدائقُ: جمعُ حديقة، وهي بساتين مُحدّقة، أي: محيطةٌ بها أشجارُها وجُدرانها[2]. ولفظُ ﴿حَدَآئِقَ﴾ في الآيةِ يدلُّ على التَّنوُّع، أي: الحدائقَ المختلفةَ الأصنافِ والألوانِ والطُّعومِ والرَّوائح، وهذه كلُّها تنبتُ بماءٍ واحدٍ أنزلَه اللهُ وأنبتَها به[3].

المقصودُ بالوصفِ ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾:

إبراز بهجةِ الحدائق، تنويهٌ بجمال الصّنع وإتقانه

البَهْجَةُ: حُسْنُ المنظر؛ لأنَّ النّاظرَ يَبْتهِجُ به[4]. وقولُه تعالى: ﴿ذَاتَ﴾؛ لأنَّ المعنَى: جماعةُ حدائقَ ذاتِ بهجة، كما يقال: النِّساءُ ذهبتْ، فقولُه تعالى: ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي: صاحبةَ حُسْنٍ ونُضْرةٍ وجَمال؛ لأنَّ النّاظرَ يَبتهج، أي: يُسَرُّ ويَفْرح[5]. وسوِّغَ إفرادُ لفظِ ﴿بَهْجَةٍ﴾؛ لأنَّ المنعوتَ وهو ﴿حَدَآئِقَ﴾ جمعُ كثرةٍ لِما لا يَعقل[6].

موقعُ جملةِ ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ﴾ إعرابيًّا:

لا يقدرُ على هذا الإبداع إلّا بديعُ السّماوات والأرض سبحانه

جملةُ: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ﴾ نعتٌ ثانٍ لقولِه: ﴿حَدَآئِقَ﴾ أو حالٌ منه، لتخصُّصِها بالصِّفة[7]، فاللهُ سبحانه لمّا أثبت الإنباتَ له، نفاه عن غيره على وجه التّأكيد تنبيهًا على تأكُّد اختصاصه بفعله، وعلى أنّه إن أسند إلى غيره فهو مجاز عنِ التّسبّب وأنَّ الحقيقة ليست إلّا له فقال: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ﴾ أي ما صحَّ وما تُصوِّرَ بوجه منَ الوجوه ﴿لَكُمْ﴾ وأنتم أحياء فضلًا عن شركائكم الذين هم أموات بل موات ﴿أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾[8].

---

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 256، والزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 155.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 187.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 257.
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 256، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 273.
(5) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 155، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 257.
(6) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 155، ودرويش، إعراب القرآن: 7/ 238.
(7) درويش، إعراب القرآن: 7/ 239.
(8) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 188.

دلالةُ ﴿مَّا﴾ في جملة ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ﴾:

مـحـالٌ على العبادِ إيجادُ شيءٍ منَ العَدَم

﴿مَّا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ للنَّفي، وهو نَفْيٌ للكَيْنونة، ومثلُ هذا النَّفي قد يكونُ لاسْتحالةِ وقوعِه كهذا، أو لامْتناعِ وقوعِه شرعًا، أو لنَفْيِ الأَوْلويَّة، والمعنَى هنا: ذلك منكم مُحال؛ لأنَّه إبرازُ شيءٍ منَ العدمِ إلى الوجود، وهذا ليس بمقدورٍ إلّا للهِ تعالى[1].

سرُّ ورودِ الفعلِ ﴿كَانَ﴾ هنا:

وقوعُ السَّببِ والمسبَّبِ عنه، كلاهما بخَلْقِ اللهِ وقدرته

ورودُ الفعلِ ﴿كَانَ﴾ هنا بمعنَى: صحَّ أوِ اسْتقام، أي: ما صحَّ منكم ذلك، وما اسْتقامَ وما تُصوِّرَ بوجهٍ منَ الوجوه، أو ما تمَّ لكم ما تريدون منَ الإنبات؛ لأنَّ ذلك موكولٌ إلى مشيئةِ اللهِ وقدرته، وفي ذلك تأكيدُ اخْتصاصِ الأمرِ في سببِه ومُسبَّبه إلى اللهِ وحدَه[2].

معنَى اللّام في ﴿لَكُمْ﴾ ونكتةُ تقديمه:

تأكيدُ اخْتصاصِهم بالنِّعَم، وكفرِهم بها وبمَن أَسْبَغها عليهم

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ﴾ هي لامُ الملك، وتدلُّ هنا على تأكيد مِنَّته تعالى عليهم واخْتصاصِهم بهذه النِّعمةِ الرَّبّانيَّةِ الَّتي تفضَّلَ بها عليهم، ولولا فضلُه سبحانه ما كان في قدرتهم أن ينفعوا أنفسهم بمثل هذه النِّعم العظيمة، ولولا رحمةُ اللهِ بهم لما أنزَلَ عليهم منَ السَّماء ماءً، ولَما أنبتتِ الأرضُ زروعَها وشجرَها وثمارَها، وفي ذلك كلِّه تعريضٌ بالمشركين بأنَّهم مع ما يشاهدونَه من تلك النِّعم الَّتي لا قدرةَ لهم باسْتجلابِها هم غيرُ شاكرين لنعمِ اللهِ؛ بل هم جاحدونَ بمن خلَقَها وخصَّهم بها[3]، وقُدِّم الجارُّ والمجرور للمبالغة في نفي مِلْكِ ذلك لهم[4]، أو إمكانِ قدرتهم عليه.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 258.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 188.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 11.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 11.

معنى الحرفِ ﴿أَن﴾ في ﴿أَن تُنۢبِتُواْ﴾:

المبالغةُ في نفي قدرةِ المشركينَ على الإنبات، تأكيدٌ لتفرّد الله بذلك

الحرفُ ﴿أَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَن تُنۢبِتُواْ﴾، حرفٌ ناصبٌ مؤكِّدٌ للنَّفْيِ الَّذي سبقَه، في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ﴾، وهو حرفٌ مصدريٌّ، ينسبِكُ مع الفعلِ بعده بمصدرٍ مؤوَّلٍ، تقديرُه: (الإنبات، أي: ما كان لكم إنباتُ شجرِها)[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿تُنۢبِتُواْ﴾:

بيانُ منَّةِ اللهِ على عبادِه بالنِّعم، وذمُّ من جَحدَها منهم

دلَّ التَّعبيرُ بالفعل ﴿تُنۢبِتُواْ﴾، على أنَّ الَّذي يُنبِتُ الحدائقَ وشجرَها، هو اللّهُ وحدَه، وأنَّ ذلك منكم مُحالٌ؛ لأنَّه إبرازُ شيءٍ منَ العدَمِ إلى الوجود، وهذا ليس بمقدور أحدٍ إلّا اللّه تعالى، وجمعَ هذا التَّعبيرُ بين ذِكرِ منَّتِه عليهم ﷻ، وذِكرِ ذمِّهم لمّا جحدوا نِعَمَه، بعد أن كفروا بألوهيَّته[2].

إيثارُ لفظِ الشَّجرِ هنا دون غيره:

تأكيدُ قدرةِ اللهِ في إنباتِ الشَّجرِ بأصنافِه المتنوّعة

آثرَ النَّظمُ الكريمُ ذكرَ لفظِ الشَّجرِ هنا؛ لأنَّ أكثرَ ما يكون في الحدائق، وينبتُ فيها بصنوفٍ متنوِّعةٍ وبثمارٍ مختلفةِ الشَّكلِ واللَّونِ والمذاقِ هو الشَّجرُ، وهو أكثرُ ما يتفاخرُ به الزّارعون وأصحابُ الحدائقِ فيما بينهم، فهذا كلُّه من إنباتِ اللّهِ وخَلْقِ اللّه، وليس للبشرِ فيه يدٌ إلّا إلقاءُ البذرِ، ودَفْنُه تحت التُّراب[3].

سرُّ الفصلِ في قولِه: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾:

إثباتُ الخلقِ والإنعامِ للهِ وحدَه دون سواه

قولُه تعالى: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ اسْتئناف؛ إذ هو كالنَّتيجةِ للجملةِ الَّتي قبله؛ لأنَّ إثباتَ الخَلْقِ والرِّزقِ والإنعامِ للّهِ تعالى بدليلٍ لا يَسعُهم إلّا الإقرارُ به، ينتجُ أنَّه لا إلهَ معه[4]، أي: (أإله آخرُ كائنٌ مع اللّه تعالى هو الّذي خلق السّمواتِ والأرضَ وأنزل منَ السّماء

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 11.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 258.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 187.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 11.

ماء.. كلّا، لا شريك مع الله تعالى في خلقه وقدرته، وإيجادِه لهذه الكائنات)[1].

دلالةُ الاستفهامِ في قوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾:

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ إنكاريٌّ تعجُّبيٌّ توبيخيٌّ، أي: أَإلهٌ آخَرُ كائنٌ مع اللهِ الَّذي ذكرَ بعضَ أفعالِه الَّتي لا يقدرُ عليها غيرُه، حتَّى يُتوهَّمَ جعلُه شريكًا له تعالى في العبادة؟!، وهذا تبكيتٌ لهم بنفي الألوهيَّةِ عمّا يُشركونه به تعالى في ضمنِ النَّفي الكلّيّ على الطريقةِ البرهانيَّةِ بعد تبكيتِهم بنفي الخيريَّةِ عنه، فمَن لا يقدرُ على إنكارِ انْتفاءِ الخيريَّة عنه بالمرَّة، لا يكادُ يقدرُ على إنكارِ انْتفاءِ الألوهيَّةِ عنه رأسًا، لا سيَّما بعد ملاحظةِ انْتفاءِ أحكامِها عمّا سواه تعالى[2].

تأكيدُ إنكارِ إلهٍ آخرَ مع الله، وتقريرُ عدمِ وجودِ هذا الإله

ويحملُ الاستفهام مع كونِه إنكاريًّا في ظاهره، اسْتفهامًا تقريريّا في داخله، فهو يقرّرُ أنَّه لا إلهَ كائنٌ مع اللهِ، لا في ذاته ولا في أفعاله ﷻ الملكِ الأعلى الَّذي لا مِثْلَ له[3]. ثمّ إنّ هذه الآياتِ سيقت مساقَ الكشف عن بعض مظاهر ألوهيّة الله ﷻ، وقد جاءت بأسلوب الاستفهام، ليكون فيها معنى الاحتجاج والمناقشة، والدّفعِ إلى التّأمّل وإعمال الفكر[4].

معنَى المعيَّة في الآية:

المعيَّةُ الواردةُ في قولِه تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ هي معيَّةُ إشراكِ معبودٍ آخَرَ مع اللهِ، أي: هل معبودٌ مع اللهِ تعبدونَه، وقد تقدَّمَ ذكرُ بعضِ أفعالِه من الخَلْقِ وإنْزالِ المطر، وإنبات الحدائقِ والشَّجر، فكيف مع ذلك كلِّه يُقرَنُ به غيرُه منَ المخلوقات، وهي ضعيفةٌ في ذاتِها وأفعالِها؛ بل بعضُها لا أفعالَ لها كالأصنام، ويُجعلُ شريكًا له في العبادةِ مع تفرُّدِه تعالى بالخَلْقِ والتَّكوين[5]؟!!

مشاركةُ معبوداتٍ مع اللهِ في العبادة، ضربٌ منَ التَّخبُّطِ والسَّفاهة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 11 - 12.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 273 - 273.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 188.
(4) محمّد سعيد البوطيّ، من روائع القرآن، ص: 280.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 273، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 193.

دلالةُ ذكرِ لفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾:

اللهُ ذو الجلالِ والعُلوِّ الكبير، لا مِثْلَ له ولا نَظير

ذكرُ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ فيه منَ المهابةِ والإجلالِ ما فيه، فذِكْرُه إيحاءٌ بأنَّ اللهَ هو المِلكُ الأَعْلى الَّذي لا مِثْلَ له ولا ندّ، فهو ذو العزَّةِ والجَبَروتِ الَّذي كلُّ شيءٍ مهما علا فهو دونَه؛ لأنَّه مخلوقٌ للهِ مقهورٌ له، فكيفَ يُشرَكُ معه غيرُه في العبادة، أو يمكنُ أن يتسلَّلَ التَّفكيرُ لذي عقلٍ أنَّه يمكنُ أن يكونَ للهِ نِدٌّ أو نَظيرٌ أو شريك، واللهُ تعالى يقولُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشّورى: 11] ويقولُ ﷻ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: 22][1].

دلالةُ ﴿بَلْ﴾:

المشركونَ مكابِرونَ في إعراضِهم عن توحيدِ الله ﷻ

تفيدُ ﴿بَلْ﴾ في قوله: ﴿بَلْ هُمْ﴾ معنَى (لكن)، باعْتبارِ ما تضمَّنه الإنكارُ من انْتفاءِ أن يكونَ مع اللهِ إلهٌ آخر، فكان حقُّ النّاسِ أن لا يُشركوا معه في الإلهيَّة غيرَه، فجيءَ بالاسْتدراك؛ لأنَّ المخاطَبين بقولِه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ وقولِه: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾، لم ينتفعوا بالدَّليلِ مع أنَّه دليلٌ ظاهرٌ مكشوفٌ، فهم مكابرونَ في إعراضِهم عنِ الاهْتداءِ بهذا الدَّليل[2].

سرُّ مجيءِ ضميرِ الفصلِ ﴿هُمْ﴾:

تسفيهُ المشركين، وما هم عليه من سوءِ المعتقدِ والحال

جيءَ بضميرِ الفصلِ ﴿هُمْ﴾، في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، لتخصيصِهم بسوءِ الحالِ الشَّنيع الَّذي وصلوا إليه، فبعد أنْ أَوْرَدَ تبكيتَهم بطريقِ الخطاب، أَظْهرَ سوءَ حالِهم وحكايتَه لغيرِهم فكأنَّهم لا شَأْنَ ولا قيمةَ لهم ولا لِشرْكِهم، فهو تخصيصٌ بالازْدراء، وتسفيهٌ لِما هم عليه من عقيدةِ الضَّلالِ والبُطْلان[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 188.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 12.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 273.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ القومِ هنا:

كفّارُ قريشٍ همُ المخاطَبونَ في الآية

دلَّ التَّعبيرُ بلفظِ القومِ على الجماعةِ الَّذين أقاموا في المكان، والمرادُ به هنا مكَّةُ المكرَّمةُ، والمقيمون فيها هم كفّار قُريش، فقولُه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي: كفّارُ مكَّةَ الَّذين أشركوا باللّه، وعبدوا الأصنام، فعدَلوا بعبادتِها عنِ الحقّ، وهو عبادةُ اللّه وحدَه لا شريكَ له[1]. وفي ذلك كلّه إيماءٌ إلى تمكُّنِ صفةِ العدولِ عنِ الحقّ منهم، حتّى كأنَّها من مقوِّماتِ قوميّتِهم[2].

إيثارُ مجيءِ الفعل ﴿يَعْدِلُونَ﴾ دون سواه:

العدولُ إشراكُ غيرِ اللهِ في العبادة، وهو لا محالةَ كفرٌ وضلالة

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ الفعل ﴿يَعْدِلُونَ﴾، لأنَّه هنا يقتضي معنيَيْنِ، وكلاهما صائبٌ يَسْتسيغُه السّياق، **الأوَّلُ**: يجعلون له عديلًا، أي: شريكًا، كقولِه تعالى: ﴿هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النَّحل: 100][3]. **والثّاني**: يَعْدِلونَ بأفعالِه عنه، وينسبونَها إلى غيرِه، أو يَعدِلونَ بعبادتِه عنه تعالى، وهو من: عَدَلَ عنِ القصدِ والحقّ، إذا جارَ عُدولًا، وهو بمعنَى: يكفرون[4].

مرجعُ ضميرِ الفعل ﴿يَعْدِلُونَ﴾:

بيانُ أنّ المشركين هم مَنْ عدَلوا عنِ الحقِّ إلى الباطل

يرجعُ ضميرُ الفعل ﴿يَعْدِلُونَ﴾ إلى المشركين، الَّذين وردَ الخطابُ لهم، بقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، والسّياقُ في الحديث عنهم في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ و﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾.

حذفُ مُتعلَّقِ الفعل، ودلالتُه:

المشركونَ يعدِلون باللهِ غيرَه، فيضلّون ضلالًا مبينًا

قولُه تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يَعْدِلونَ باللّهِ غيرَه، أي: يجعلون له عديلًا مثيلًا له في الإلهيَّة، مع أنَّ غيرَه عاجزٌ عن

(1) الرّاغب، المفردات: (قوم).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 12.
(3) الرّاغب، المفردات: (عدل)، وابن جرير، جامع البيان: 20/ 3، والزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 155.
(4) الزَّجاج، معاني القرآن: 4/ 128، والرّاغب، المفردات: (عدل)، والزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 155.

ذلك، أو يعدِلون عنِ الحقّ، وأيًّا ما كانَ، فالمقصودُ توبيخُهم على الإشراكِ مع وضوحِ الدَّلالاتِ المحسوسةِ الدّالّةِ على انْفرادِ اللّهِ تعالى بخلْقِ السَّماواتِ والأرضِ، وإنزالِ الماءِ منَ السَّماء، وإنباتِ الزُّروعِ والأشجار[1].

نكتةُ الإخبارِ بالفعلِ المضارع ﴿يَعْدِلُونَ﴾:

استمرارُ القومِ على شِركِهم يناسبُ المضارعيّةَ

أوردَ النَّظمُ الكريمُ الإخبارَ عنِ المشركينَ بصيغةِ المضارع في قولِه تعالى: ﴿يَعْدِلُونَ﴾ لإفادةِ أنَّهم مستمرّونَ على شركِهم، لم يستنيروا بدليلِ العقل، ولا أقلَعوا بعد التَّذكيرِ بالدَّلائل، قال أبو زهرة في معرض التّعليق على قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾: "أي يَعدلون عن حكم العقل، وحكم المنطق، والطّريقِ المستقيم، وكان التّعبير بالمضارع لتصوير عدولهم عنِ الحقّ إلى الباطل، ومنَ العقل إلى الهوى، ألا ساء ما يقولون، وما يفعلون"[2].

دلالةُ (أَمْ) المكرَّرةِ في السّياق:

زيادة التَّقرير والإنكار بزيادة الأدلّة والحجج

(أَمْ) في قولِه تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾، للإضرابِ الانْتقاليِّ، مِثْل أُخْتِها السّابقة، وهذا انْتقالٌ منَ الاسْتدلالِ المَشوبِ بالامْتنانِ، إلى الاسْتدلالِ المجرَّدِ بدلائلِ قُدرتِه وعلمِه، بأن خلقَ المخلوقاتِ العظيمةَ، وبتدبيرِه نظامَها حتَّى لا يَطْغَى بعضُها على بعض، فيختلَّ نظامُ الجميع[3].

وبالتّالي فإنَّ (أَمْ) دالَّةٌ على الاسْتفهامِ المتضمِّنِ معنَى المعادلةِ والموازنةِ، بين اللّهِ تعالى خالقِ الكونِ وما فيه ومَنْ فيه، وأوثانِهم الَّتي يعبدونَها، وإنَّ الإضرابَ الانْتقاليَّ مؤدّاه أنَّه انْتقالٌ من لَوْمٍ وتوبيخٍ إلى لونٍ آخرَ فيه، أشدَّ تأنيبًا، وأبعدَ اسْتنكارًا[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 12.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 471.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 12 - 13.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5471 - 5472.

دلالةُ الفعل ﴿جَعَلَ﴾ في الآية:

تمهيدُ الأرضِ للصلاحيَّةِ الإقامةِ عليها، من حِكَم الله الجليلة

الجَعْلُ يقتضي التَّهيئةَ والإعداد، ومعناه في قولِه تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾، أنَّه ﷻ خلقَ الأرض، ومهَّدَها تمهيدًا، بحيثُ جعلَها ذاتَ قرارٍ وإقامة، واسْتمكانًا للأحياء، يُمكَّنونَ فيها ويتّخذون مساكنَ منَ البناءِ أوِ الأَخْبية، ولذلك قالَ تعالى بعد ذلك: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾[1].

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾:

الأرضُ المعهودةُ للبشر، مذلَّلةٌ للاستقرار والعَمار

تعريفُ الأرضِ في قولِه تعالى: ﴿جَعَلَ ٱلْأَرْضَ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ المرادَ بها الأرضُ المعهودةُ الَّتي جعلَها اللّهُ مكانَ إقامةٍ للعباد، يمشون عليها بسهولةٍ ويُسْرٍ دون اضطرابٍ وعُسر، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: 15].

نكتةُ وصف ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ بكونها ﴿قَرَارًا﴾:

تخصيصُ الأرضِ بوصفِها مكانَ استقرارٍ للعباد، عطاءٌ ما له من نفاد

لمّا ذكرَ تعالى أنَّه مُنشئُ السَّماواتِ والأرض، وذكرَ شيئًا مُشتركًا بين السَّماء والأرض، وهو إنزالُ الماءِ منَ السَّماء وإنباتُ الحدائقِ بالأرض، ذكرَ شيئًا مختصًّا بالأرض، وصفَها به وصفًا لازمًا لها للمبالغة، أي: ذاتُ قرار، أي: مستقرًّا لكم، بحيث يمكنُكُم الإقامةُ بها والاسْتقرارُ عليها[2]. وهذا يدلُّ على أنَّ اللّهَ ﷻ خلقَ الأرضَ على هذه الحالِ المستقرّةِ تحقيقًا لمصالحِ العبادِ عليها والقيامِ بعمارتِها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61].

دَلالةُ تَكرار فعلِ الجَعْلِ في الآية:

عدمُ اضطرابِ الأرضِ يجعلُ الأنهار تجري فيها بانتظام

تكرّر ذكرُ فعلِ الجعل في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾، وقد سبق ذكره في قوله ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ لكمال الامْتنانِ على العباد بجعل الأنهار؛ لأنَّه لمّا ذكرَ قرارَ الأرضِ، وعَدَمَ اضطرابِها

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5372.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 258.

بأهلِها، أَتْبعهُ بدليلٍ على تحقُّقِ هذا القرار، وهو أن جعلَ خلالَها في الأماكنِ المنفردةِ بين جبالِها أنهارًا جاريةً على حالةٍ واحدة، فلوِ اضْطربتِ الأرضُ أَدْنَى اضْطراب، لتغيَّرتْ مجاري المياهِ بلا ارْتياب[1]، ومن تمام منّته سبحانه كذلك أنّه بعد أن جعل الأرض مستقرّةً سهّل فيها منافع الناس منَ الماء والمرعى وغيرها.

دلالةُ اخْتيارِ لفظِ ﴿خِلَٰلَهَآ﴾:

خلالُ الشَّيء: مُنفرَجُ ما بين أجزائه، والأنهارُ تشُقُّ الأرضَ في أخاديدَ، فتجري خلالَ الأرض، أي: فيما بين تلك الشُّقوقِ والأخاديد، كقولِه تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف: 33][2]، ويكون ذلك الجريانُ للأنهارِ في وسطِ الأماكنِ المنفرجة[3]، وخلالها بمعنى أنّها قد "تخلّلتها في ترابها، وفي رمالها، وفي جبالها، أنهارٌ عذبة للشّرب، ولمنفعة الإنسان والطّير والحيوان، ولا يستطيع الإنسان أن يحيا بدون ماء، ولا يأتي بالماء إلّا اللّه، ولو أصبح هذا الماء غائرًا في الأرض، فمنِ الّذي سيأتي به غيرُ اللّه تعالى القادر على كلّ شيء؟!"[4].

الأنـهـارُ تجري وسطَ الأخاديد، فـي مـجـارٍ مرسومةٍ بحكمة ودقّة

موقعُ قولِه: ﴿خِلَٰلَهَآ﴾ من الإعراب:

قولُه تعالى: ﴿خِلَٰلَهَآ﴾ يجوزُ أن يكونَ ظرفًا لـ ﴿وَجَعَلَ﴾، بمعنَى (خلقَ)[5] المتعدّية لواحد، ويجوزُ أن يكونَ في محلِّ المفعولِ الثّاني، على أنَّ ﴿وَجَعَلَ﴾ بمعنَى صيَّر[6].

خلقَ اللهُ الأرضَ وصـيَّرَ خلالَـها أنهارًا، كمالًا في نعمه

سرُّ تنكيرِ لفظِ ﴿أَنْهَرًا﴾:

جاءَ تنكيرُ لفظِ ﴿أَنْهَرًا﴾ لتعدُّدِ تلك الأنهارِ، وتنوُّعِ فوائدها،

كـثرةُ الأنـهـارِ وتنوُّعُ فوائدِها، عـطاءٌ مـنَ الله وغدقٌ مبهجٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 188 - 189.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 189، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 193.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 3، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 13.
(4) محمّد المنتصر الكتّانيّ، تفسير القرآن الكريم: 9/ 137.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 15/ 5472.
(6) درويش، إعراب القرآن: 7/ 239.

فمنها أنهارٌ عذبةٌ، تكون ذاتَ مناظرَ بهيجة، يشربُ منها الإنسانُ والحيوان، ومن مياهِها يكونُ إنباتُ الزَّرعِ وفَلْقُ الحَبِّ والنَّوَى، الَّذي يتغذّى به الإنسان، ويكونُ منها إنباتُ الكلأِ الَّذي يأكلُ منه الحيوانُ، حين يُريحونَ، وحين يَسْرَحون[1].

بلاغةُ مجيءِ فعلِ الجعلِ، مع سَبْقِ ذكرِه:

الجعلُ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾، يعودُ على الأرض، أي: صيَّرَ اللهُ ﷻ الجبالَ، وهيَّأها لتكونَ رواسيَ ثابتةً، تثبِّتُ الأرض، وهي لها كالأوتاد، تمنعُها - بقدرةِ اللهِ ورحمتِه بعبادِه - منَ الاضْطرابِ والمَيَدان، فاعتدلَتْ جميعُ جوانبِها، وإلّا لاسْتحالتْ عليها حياةُ الإنسان[2].

صيَّر اللهُ الجبالَ أوتـــادًا، تثبِّتُ الأرضَ فلا تميدُ بأهلها

وتَكرارُ الفعل ﴿وَجَعَلَ﴾ هنا مع الجبال وقد سبق ذكره يدلُّ على أهمّية الجبال، وعظيمِ خلقها، لذلك استقلّت جملتُها بتَكرار فعل الجعل، ولا يخفى ما للجبال من عظيم الشّأن، إذ هي أوتاد الأرض تحفظُها وتثبّتُها منَ الاضطراب كما قال سبحانه: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: 15].

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿لَهَا﴾ هنا:

تقدَّمَ الجارُّ والمجرور ﴿لَهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾ لمزيدِ الاهتمام بالأرض، فاللّامُ في ﴿لَهَا﴾ لامُ العلَّة، أي: الرَّواسي لأَجْلِها، أي: لفائدتِها، فإنَّ في تكوينِ الجبالِ حكمةً، لدفعِ الملاسةِ عنِ الأرض، ليكونَ سَيْرُها في الكُرةِ الهوائيَّةِ، مُعدَّلًا غيرَ شديدِ السُّرعة، وبذلك دوامُ سَيْرِها[3].

الجبـالُ لأجـلِ فـائـدةِ الأرض، ولِمَـنْ يعيش في الأرض

دلالةُ التَّعبير بلفظِ ﴿رَوَٰسِيَ﴾:

الرَّواسي: الجبال، جمعُ راسٍ، وهو الثّابت، فقولُه تعالى: ﴿رَوَٰسِيَ﴾

الجبالُ ثابتاتٌ في أنـفُـسِـهـا، مُثبِّتاتٌ للأرض برسوخ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5472.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 189، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5472.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 13.

أي: كمراسي السُّفُن، الَّتي تكونُ أسبابًا في ثباتِها على ميزانٍ دبَّرَه سبحانه، في مواضعَ من أرجائها، بحيث اعْتدلتْ جميعُ جوانبِها، فامْتنعتْ منَ الاضْطراب[1].

بلاغةُ عطفِ ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ على سابقه:

جعلَ اللهُ بين البحرَيْنِ حاجزًا بقدرتِه، كما جعلَ الرَّواسيَ والأنهار

لَمّا أثبتَ النَّظمُ الكريمُ القرارَ وسببَه، وكان قد جعلَ سبحانه للأنهارِ طُرُقًا، تتصرَّف فيها، ولو حبسَها عنِ الجَرْيِ شيءٌ لَأَوْشك أن تسْتبحر، فيصيرُ أكثرُ الأرضِ لا يُنتفَعُ به في سَيْرٍ ولا نبات، وكان ذلك كلُّه بأسلوبِ الاسْتفهامِ التَّقريريِّ، مع التَّعجيبِ من عدمِ إيمانِهم؛ عطفَ عليه ما كان على شاكلتِه، فسألهم عنِ المُمسِكِ لعدوانِ أحدِ البحريْنِ على الآخَرِ، دون أن يختلطا، فقال: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾، تنبيهًا على عظيمِ القدرةِ الإلهيَّة، فكما أنَّ قدرتَه تعالى ظاهرةٌ للعَيان فيما سبق، فهي ظاهرةٌ كذلك هنا بكلِّ وضوح[2].

سرُّ ورودِ الكنايةِ في سياق الآية:

خلقَ اللهُ البحرَيْن، والملوحةُ والعذوبةُ فيهما، متجاورتان دون طغيان

الجعلُ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ كنايةٌ عن خَلْقِ البحرَيْن أيضًا؛ لأنَّ الحجزَ بينَهما يقتضي خَلْقَهما وخَلْقَ المُلوحةِ والعُذوبةِ فيهما[3]، والإعجازُ الّذي تلفتُ إليه الآيةُ، أنّه جعل بين البحر العذب، والبحر المالح الأجاج حاجزًا، بحيث لا يختلط ماؤهما، رغم أنّه يظهر للعيان أنّه يختلط[4]، وهذه حكمة اللّه في جعل الماء يتجاورُ ولا يمتزج، رغم أنّ كليهما ماء، ولكنّ اختلاف الخصائص يمنع غلبةَ أحدهما على الآخر، وهو فحوى قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾ [الرّحمن: 19 - 20].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 189.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 190.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 13.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 6/ 20.

دلالةُ لفظِ ﴿بَيْنَ﴾ في السّياق:

لفظُ ﴿بَيْنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾، يدُلُّ على الظَّرفِ المكانيّ، أي: الفاصل بينهما، وإن كان فاصلًا غيرَ حسّيٍّ، لكنَّه قائمٌ على ما بينَهما لئلّا يخرقاه فيتَّصلا[1]، والمعنى أنّه جعل البينيّة حاجزًا، بين البحرين المذكورين، يمنع من اختلاطهما، فيحصل من ذلك مقاصدُهما ومصالحُهما، منفصلٌ بعضهما عن بعض ولو كان المصبّ واحدًا، فإنّ ما أثبته العلم الحديث، أنّ الجزيئاتِ المكوّنةَ لكلّ منهما، لا يختلط بعضُها ببعض[2].

حقيقةُ وجودِ الفاصلِ بين البحرَيْن، دالٌّ على عظمةِ الخالق

التَّنصيصُ على لفظِ ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾:

التَّنصيصُ على لفظِ ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾، لبيانِ وجودِ بحرَيْنِ مائيَّيْن: أحدُهما العَذْبُ الفُرات، والآخرُ المِلْحُ الأُجاج[3].

دلالةُ التَّعريفِ في ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾:

التَّعريفُ في لفظِ ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ للعهد، أي: البحرَيْن المعروفَيْن عند النّاس، وهما بحرُ فارس، وبحرُ الرّوم، أو أنَّهما بحرانِ أحدُهما عَذْبٌ والثّاني مالح[4].

البحرانِ المعهودانِ العَذْبُ والمالح، ينبئان على بديعِ الصّنع

وسمّي بحر فارس بذلك لسيطرة الامبراطوريَّة الفارسيَّة عليه، ويُسمّى بحرَ العراق، وبحرُ الرّوم سمّي بذلك لسيطرة الامبراطوريَّة الرّومانيَّة عليه قبل ظهور الإسلام، ويسمَّى بحرَ الشّام[5].

دلالةُ اختيارِ لفظِ ﴿حَاجِزًا﴾ دون غيرِه:

الحَجْزُ: المنعُ، والحاجزُ: المانعُ، وهو حاجزٌ معنويٌّ حاصلٌ من

الحاجزُ غيرُ مرئيٍّ بالعين المجرّدة، وهو قائمٌ بأمرِ اللهِ وقدرتِه

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 190.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 607.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 258، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5472.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 3، والزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 127، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 193.
(5) حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص: 44 - 46، وهو قول الحسن البصري في تفسير ابن أبي حاتم: 9/ 2809، والبقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 189.

دفعِ كلا الماءَيْنِ أحدِهما الآخَرَ عنِ الاختلاطِ به، بسببِ تفاوتِ الثِّقلِ النِّسبيِّ لاختلافِ الأجزاءِ المركَّبِ منها، الماء المِلْح والماء العَذْب، فالحاجزُ حاجزٌ من طبعِهما، وليس جسمًا آخَرَ فاصلًا بينهما، وليس عند عاقلٍ شكٌّ أنَّ ذلك لا يكونُ إلّا للّهِ وحده[1].

بلاغةُ الاستفهامِ في قولِه: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾:

تأكيدُ إنكارِ الإشراكِ باللهِ، وتوبيخ المشركين

لَمّا كانَ من المعلوم لكلِّ عاقلٍ أنَّ اللّهَ تعالى وحدَه، هو الَّذي خلقَ السَّماواتِ والأرضَ، وأنزلَ منَ السَّماءِ ماءً فأنبتَ به حدائقَ ذاتَ بهجة، وجعلَ الأرضَ قرارًا فثبَّتَها بالجبال، وجعلَ خلالَها أنهارًا، وجعلَ بين البحرَيْن العذبِ والمالحِ حاجزًا، لا يبغي أحدُهما على الآخَر؛ ذُيِّلَ ذلك كلُّه بالاستفهامِ الإنكاريِّ مكرَّرًا، تأكيدًا بأنَّه لا يمكنُ لأيِّ إلهٍ أن يشاركَ في كلِّ ما سبقَ أو في شيءٍ منه، فلا إلَهَ أصلًا غيرُ اللّهِ يملكُ القدرةَ على خلْقِ ذلك كلِّه، فيُقرَنُ به ويُجعلُ شريكًا له ﷻ[2]. وفي ذلك توبيخٌ شديدٌ لأولئك الَّذين عبدوا مع اللّهِ غيرَه منَ المخلوقات[3].

ورودُ لفظِ المعيَّة في قوله ﴿مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾:

الإشراكُ مع اللهِ غيرَه في العبادةِ، إهدارٌ لكرامةِ العقل

جاءَ لفظُ المعيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾، دليلًا على وجودِ من يُشركُ مع اللّهِ غيرَهُ، وأنَّ هؤلاء المشركينَ لا يملكون مسكةَ عَقْلٍ، في مقابلِ كلِّ الأدلَّةِ والبراهينِ المشاهَدةِ الَّتي تؤكِّدُ وحدانيَّةَ اللّه، وأنَّه لا يُشرَكُ معه غيرُهُ في ألوهيَّتِه وربوبيَّتِه وأسمائه وصفاتِه[4].

اختيارُ لفظِ الألوهيَّة دون غيرِه:

قريشٌ أشركتْ مع اللهِ غيرَه في العبادة، فضلّت عن سواء السّبيل

أَلَهَ فلانٌ يَأْلُهُ: عَبَدَ، فالإلهُ على هذا هو المعبود[5]، فَعِلَةٌ اختيارِ النَّظمِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 13.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 190.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 14.
(4) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 193.
(5) الرّاغب، المفردات: (أله).

الكريم لفظَ الأُلوهيَّة في قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾؛ أنَّ مشركي مكَّة والعربَ كانوا يُشركونَ مع اللهِ غيرَه في العبادة، بينما يُقرّون له بالخلق والملك، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [الزُّمر: 38]. فهذا الاختيارُ تصويرٌ لواقعِ ما عليه المشركون، أي: يشركونَ مع اللهِ غيرَه في العبادة، مع اعترافهم بأنّه وحده الخالقُ المالك، قال تعالى عنِ المشركين في حُجَّتِهم المتهافتة: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمر: 3].

دلالةُ الإضرابِ بالأداة ﴿بَلْ﴾:

الاستدراكُ في بيانِ مكابرتهم مع توبيخِهم لعدمِ علمِهم

الإضرابُ في قوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، يفيد معنَى (لكنَّ) باعْتبارِ ما تضمَّنَه الإنكارُ منِ انْتفاءِ أن يكون مع اللهِ إلَهٌ، فكان حقُّ اللهِ على النّاس أن لا يُشركوا معه في الإلهيَّةِ غيره، فجيءَ بالاسْتدراك؛ لأنَّ المخاطَبين بقوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ﴾، لم ينتفعوا بالدَّليلِ مع أنَّه دليلٌ ظاهرٌ جليٌّ، فهم مُكابرونَ في إعراضِهم عنِ الاهْتداءِ بهذا الدَّليل، فكان هذا الإنكارُ المكرَّرُ تأكيدًا لقُبحِ ما هم عليه منَ الإشراك، وتمهيدًا للتَّوبيخِ الشَّديدِ، بقوله تعالى في ذَيْلِ الآية: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾:

أكثرُ المشركين لا يتفكَّرونَ في بدائعِ خَلْقِ الله، فلا يهتدون سبيلا

أوثِرَ هنا نفيُ صفةِ العلم عن أكثرِ المشركين، في قوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، لقلَّةِ مَنْ ينظرُ في دقائقِ هذه المصنوعاتِ وخصائصِها منهم، فإنَّ اعْتيادَ مشاهدتِها من أوَّلِ نشأةِ النّاظرِ يُذهِلُه عمّا فيها من دلائلِ بديعِ الصُّنع، فأكثرُ المشركين يجهلُ ذلك، ولا يهتدي بما فيه[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 12، 13 - 14.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 14.

عَوْدُ الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

أكـثرُ المشركين جاهلون بالله تعالى وحقِّه

يعودُ الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ على المشركين الَّذين وردَ ذكرُهم في قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾.

والنَّفيُ في قولِه تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ليس لهم نوعٌ منَ العلم؛ بل هم كالبهائمِ لإعراضِهم عن هذه الأدلَّةِ الواضحة[1].

دلالةُ مجيءِ فعلِ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ مضارعًا:

بيانُ استمراريَّة جهلِهم، وتجدُّدِ أفعالِهمُ القبيحة

جيءَ بالفعلِ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ للدَّلالةِ على تجدُّدِ جهلِهم بتجدُّدِ أفعالِهم، ولذلك كان التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعة دقيقًا في تصويرِ ما هم عليه من استمراريَّةِ إنكارِهم مع استمراريَّة جهلِهم[2].

حذفُ متعلَّق فعلِ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾:

كيف يجهلُ المشركونَ توحيدَ ربِّهم، مع ظهورِه بالأدلَّةِ المشاهَدةِ لهم

قولُه تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمونَ توحيدَ ربِّهم، وسُلطانَه وقدرتَه العظيمة[3]، أو أنَّهم لا يعلمون شيئًا منَ الأشياء، ولذلك لا يفهمون ما هم عليه منَ الشِّركِ مع كمالِ ظهورِه في تلك الأدلَّةِ الَّتي ساقَها النَّظمُ الكريم، وغيرها كثير[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السلام والأمان:

السَّلامُ والأمانُ كلاهما يشتركانِ في الطُّمأنينةِ والسَّلامة منَ الآفاتِ والبلاءات

السَّلْمُ والسَّلامةُ: التَّعرّي منَ الآفاتِ الظّاهرةِ والباطنة، قال تعالى: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشُّعراء: 89]. وقد سَلِمَ يَسْلَمُ سلامةً وسلامًا، وسلَّمَهُ اللّه، قال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحِجر: 46]، أي:

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 190.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5472.
(3) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 193.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 274.

سلامة. والسَّلامةُ الحقيقيَّةُ ليست إلّا في الجنَّة، كما قال تعالى: ﴿*لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: 127]. والسَّلامُ اسْمٌ من أسماءِ اللّه تعالى، قال تعالى: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: 23](1). والأمانُ والأَمْنُ والأمانةُ مصادرُ للفعل (أَمِنَ). وأصلُ معناها: طُمأنينةُ النَّفْسِ وزوالُ الخَوْف، ويُجعَلُ الأمانُ تارةً اسْمًا لما يُؤَمَّنُ عليه الإنسانُ، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ [الأنفال: 27]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: 97](2).

الاصطفاء والاجتباء:

يشتركانِ بتخصيصِ اللهِ بعضَ عبادِه بما يريد، والأوَّلُ قد يكونُ بسَعْيِ العبد، والثّاني دون سَعْيه

الاصْطفاءُ: أَخْذُ ما يصفو منَ الشَّيء، واصْطفاءُ اللّهِ بعضَ عبادِه قد يكونُ بإيجادِه تعالى إيّاهُ صافيًا عنِ الشَّوْبِ الموجودِ في غيرِه، وقد يكونُ باخْتيارِه وبحُكمِه وإن لم يتعرَّ ذلك منَ الأوَّل، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحجّ: 75](3). وجَبَيْتُ الماءَ في الحَوْض، جمعتُه، قال تعالى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القَصص: 57] منَ الجِباية، أي: يُجبَى ويُجمَع. والاجْتباءُ: الجمعُ على طريقِ الاصْطفاء، قال ﷻ: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [القلم: 50]. واجْتباءُ اللّهِ العَبْدَ: تخصيصُه إيّاه بفَيْضٍ إلهيٍّ يتحصَّلُ له منه أنواعٌ منَ النِّعَم بلا سَعْيٍ منَ العبد، وذلكَ للأنبياءِ وبعضِ مَنْ يُقاربُهم منَ الصِّدّيقين والشُّهداء، كما قال تعالى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾ [القلم: 50]، وقال سبحانه: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٨٧﴾ [الأنعام: 87](4).

الحدائقُ والجنّات:

الحديقةُ: أرضٌ ذاتُ شَجَرٍ مُثْمِر، والحديقةُ منَ الرّياض: كلُّ

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 119، والرّاغب، المفردات: (سلم).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أمن).
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 29، والرّاغب، المفردات: (صفو).
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جبى).

رَوْضةٍ قد أَحْدَقَ بها حاجز، أو أرضٌ مرتفعة، وكلُّ شيءٍ اسْتدارَ بشيءٍ فقد أَحْدَقَ به[1]. والحدائقُ: جِنانٌ من جنانِ الدُّنيا، واحدتُها: حديقة[2]. وإنَّما يقالُ حديقةٌ لكلِّ بستانٍ عليه حائطٌ، وما لم يكن عليه حائطٌ لا يقالُ له: حديقة[3]. والجنَّةُ: كلُّ بُستانٍ ذي شَجَرٍ يسترُ بأشجارِه الأرضَ، قال ﷻ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ [الكهف: 39]، وقد تُسمَّى الأشجارُ السّاترةُ جَنَّةً. وسُمّيت الجنَّةُ إمّا تشبيهًا بالجنَّةِ في الأرض - وإنْ كان بينَهما بَوْنٌ - وإمّا لسترِه نعمَها عنّا المشارِ إليها بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السَّجدة: 17].

اشْتراكُهما في وجودِ الشَّجَرِ فيهما، واخْتلافُهما بوجودِ حائطٍ في الأولى، وشجرِ فقط في الثّانية

الحاجز والمانع:

الحاجزُ: الحائلُ بين الشَّيئين، يقال: حَجَزْتُ بين الرَّجُلَيْن، وذلك أن يُمنَعَ كلُّ واحدٍ منهما من صاحبِه، قال تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقَّة: 47][4]. والمَنْعُ يقال في ضدِّ العَطيَّة، يقال: رجلٌ مانعٌ ومَنّاعٌ ومَنوعٌ، أي: بخيل، قال تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ [ق: 25]، ويُقالُ في الحماية، ومنه: مكانٌ منيعٌ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 114]، ومانعٌ ومنيعٌ ومَنّاعٌ: أسماء، والامْتناعُ: الكَفُّ عنِ الشَّيء، ومانَعهُ الشيءَ وتمنَّعَ عنه[5].

يشتركان في المنعِ عنِ الشَّيء، والثّاني أعَمُّ، فهو يُستعمَلُ في الأشياءِ المادّيّةِ والمعنويّة

(1) الخليل، العين: (حدق)، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: 4/ 34.
(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 95.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 297، والزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 128.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والراغب، المفردات: (حجز).
(5) الرّاغب، المفردات، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (منع).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأربعون،
سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 40 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-90-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 40 : المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-90-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9294238 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»